كتب

في كتابها الجديد، «بعيون النساء: شؤون اللبنانيات وقضاياهن»، تستكمل الباحثة اللبنانية مشروعَها حول أوضاع النساء ومساءلة الهيمنة الذكورية. عملٌ يجمع بين الميداني والنظري وينفتح على النظريات النسوية والجندرية من دون فرض مقولاتٍ غربية على واقعٍ عربي

عزّة شرارة بيضون تسميةُ العنف ووصف النضال

مجتمعٌ لا يرى بعيون النساء

نجم الدين خلف الله

أبحاثٌ تَحار في إنماء نِسبتها لجِدّتها ونفاذِها. وترى، بعد التأمّل، أنها تَنتمي إلى حقل معرفيّ جديد: علم القانون المجتمعيّ الذي يُعنى بدراسة العلاقات المُنعقدة بين القوانين والمخالفات في بُعدها السوسيولوجيّ، باعتماد الأبحاث الميدانيّة التي تستقصي الجذور الاجتماعيّة للقُضاة والجُناة وأجناسهم وطوائفهم وعلاقة ذلك بنصوص القانون وتأويلها وتطبيقها. وهو ما خاضت فيه الباحثة عَزّة شرارة بَيضون، في كتابها الجديد: «بعيون النساء: شؤون اللبنانيات وقضاياهن»، الصادر أخيرًا عن «مؤسّسة دار الجديد» اللبنانيّة.

يَنقسم الكتاب إلى أربعة مباحثَ مترابطة: يُعنى الأوّل منها بمظاهر العنف ضدّ النساء في الأُسرة وأمام القضاء، وفيه تستَعرض الكاتبة نتائجَ مقابلاتٍ مع مرتكبي هذه الآفة وضحاياها، بحثًا عن دلالاتها العميقة واستكشافًا لمظاهر الهيمنة الذكورية التي غالبًا ما تتّكئ على المرجعيّة الدينيّة، ثم تؤوّلها بحَسب الهوى. أمّا الفصل الثاني، فقد خُصّص للدراسات النّسوية وملامح المقاربة الجندرية وحدودِها، وكأنّه فَصلٌ يحفِر في الطرائق التي يعتمدها البحّاثة العَرَب لسبر أغوار هذا الحقل الذي كأنما يُسار فيه على البيض لحَساسيّته وامتزاج الذاتيّ فيه بالموضوعيّ، والهيمنةِ بالوصف، ضمن العلاقة الجدليّة بين المعرفة والسلطة. ويهدفُ الفصلُ الموالي إلى استعادة شؤون النساء ضمن نسيج الحياة اليوميّة مثل نشاطهن على صفحات «فيسبوك»، والعمل المنزليّ، ليُختَم الكتابُ بملحق «خاصّ لا يخلو من العام»، لأنّه استعاد نَصّ مقابلةٍ سبق وأن نُشرت في جريدة عربيّة، بعنوان: «لسْنا كارهاتٍ للرجال»، تناولت فيها المؤلّفة دواعي النضال النسوي، وليس ألصق من هذا النّضال بالشأن العربيّ العام، وفيه بيّنت أنّ المنافحة لا تنصبّ على الرجال، بل ضدّ نظام اجتماعيّ متخلّفٍ يقوم على الطائفيّة والعشائريّة والذكوريّة، كما عادت فيه إلى أهمّ العراقيل التي تحجز انبثاق مساواة كاملة بين الجنسَيْن وتجلّي آثار التمييز الجنسي ووظائفه الاجتماعيّة والنفسيّة.

وقد تخلّلت كلَّ فِقَر الكتاب إحالاتٌ على مفاهيم مَأتاها من العلوم الإنسانيّة والفلسفة والقانون وعلم النفس والتحليل الألسنيّ، ضمن تحوّلٍ في النموذج المعرفي، ودُرست من خلالها تأثير النّظام القضائيّ في المشاركين مع الاستفادة من تلك التطبيقات على عملية التشريع. فالعمل إذن زبدة ما توَصّلت إليه الباحثة، في العقود الماضية، من الأنظار والنتائج في قَضايا الحميميّة ونشأة التشريعات والتمثلات الاجتماعية التي يصوغها كلُّ جنس عن الآخر. كان الالتزام السياسيّ التقدميّ والنظر المعرفي مصدري هذه الأوراق. وأما ميدانها فيمتدّ على المجتمع اللبنانيّ بما فيه من سمات وخصوصياتٍ، إلا أنه قد يشمل كلّ المجتمعات العربيّة - الإسلاميّة، والتي ما تزال فيها الهيمنة الذكوريّة واضحة ووضعيّة المرأة مُزرية.

كما كان مفهوم «الجندر» حاضرًا يخترق المباحث ويغذّيها، لكن من دون أن يُسقَط عَليها، بما له من دلالات حافّة التصقَت به في مَنشأه الغربي. وَظّفته شرارة بيضون بما يمكن أن يُثريه ويطوّعه لدراسة المجتمعات العربية ولبنان خصوصًا. ومن بين الخطوط الناظمة لهذه الأعمال أيضا تناولٌ يقرب إلى الألسنية القانونيّة بما هي تحليل لغوي للخطاب القانوني المعنيّ بشؤون النساء وقضاياهن، ذلك أنّ مؤسسات الدولة (القضائيّة والدينيّة) تستند إلى كلام، قوامه صورٌ ومفاهيم وعبارات، وهو حَمّال لمواقف سلبية من المرأة، عاكس لنظرة المجتمع الإزرائية لها، وهو الذكوري في بنيته وحركيّته. فكان أن انصبت جهود الباحثة على هذا الخطاب الذي يختفي تارةً ويظهر أخرى، لتواجهَ المسكوت عنه فيه وتُعرّي مضامينه البائسة، مبيّنةً عن علاقاتها بالرؤية الدينية والصحافيّة والقضائيّة، ممّا يجعل هذه المباحث تحليلاً للتعددية الصوتية (polyphonie) التي تميّز الحديث عن المرأة في القانون وتوظّفه لصالحها أو على حسابها في جدلٍ لُغويّ - قانونيّ.

وأمّا القضايا التي طرحتها عَزّة شرارة بيضون في هذا الكتاب فشديدة الحساسية، لاتّصالها بمجال الحَميميّ-الخاصّ، ولا سيّما في ارتباطه بالمقدّس والديني ثم بالقانونيّ. ومع ذلك، تقحّمت هذا الحقلَ المَلغوم بحكمةٍ وتَعقّل، بمعنى أنها لم تستسلم للخطاب النّسوي السّهل، الذي يُسقط مقولاتٍ مشتقة من مجتمعات أخرى (الغربية)، لها سرديّاتٌ عن تاريخها، مختلفة عمّا في تاريخنا. كما أنها لم تُذعن لمنطق التهويل والمبالغة، ولكنها عَرضَت هذه القضايا والشؤون بأسلوبٍ وَصفيّ يُحلّل خُصوصيات المجتمع اللبنّاني ولا يقفز على الوقائع والأحداث، ولا على الماضي الذي يحكم راهنها بشدّة، يُقيّدها ويفسّرها ولا مَندوحَة من تحليله وتعَريته. ورغم هذا التريّث، تظلّ المقاربة التي نَسجتها الكاتبة وثيقةَ الصلة بالنضال النّسوي الرشيد، الذي لا يقع في فخاخ الإسقاط ولا ينجرّ إلى منطق التماهي والقفز على الواقعات، بل يَسعى إلى إحداث التغيير من خلال الأطر والبنى الداخلية (كالقضاء والتعليم والاقتصاد والصحّة النفسية والعضويّة)، كما يستضيء بما حصل من متغيّرات في مجال حقوق المرأة والمسارات التي سَبَق وأن قطعتْها. ذلك أنّ المرأة التي تُحدّث عنها عزّة شَرارة بيضون هنا ليست امرأةَ نوال السعداوي ولا الطاهر الحدّاد، ولا قاسم أمين مِن قَبلهما، بل هي مرأةُ الألفيّة الثالثة، المستفيدة من الثورة الرقميّة بعد أن تعزّزت مكانتها، على الأقل ظاهريًا، في المجال العام.

ولا بدّ في الأخير من الإشارة إلى أناقة اللغة ورشاقة المصطلحات الاجتماعيّة التي وُظّفت في هذا الكتاب، ما يجعل منه إسهامًا فعليًا في الحقل المعجميّ الخاص بوضعية المرأة وشواغلها القانونيّة ومتغيّراتها الاجتماعيّة في الوطن العربي إبّان العقدَيْن الأخيرَيْن. عَدمُ الكتابة عنها باللّسان الفرنسي أو الإنكليزي هو في حدّ ذاته مَكسبٌ يطوّر المباحث السوسيولوجية العربية ويُرقّيها ويَجعلها أكثر دقّة.

وهكذا، فالكتاب خطابٌ جَريءٌ، يتوسّل بعلوم القانون المجتمعي في سبيل رصد ظواهر العنف ضد النساء، كُتِبَ محمولاً بتَوق الفهم وحُرقة العدالة حتى تُفهمَ أصول العنف ومقاربات الجندر وشؤون اللبنانيات بين فضاء الخاص ومتاهات العام. هو خطابٌ نسويّ عِلمي يستمدّ فَتاءَ عَقيدته من صدق الالتزام بقضايا المرأة وهي تُسهم في صنع التاريخ وكتابة تحوّلاته، تقود ثوراته وتُغيّر من واقعها وواقع شريكها؛ الرجل. وليست هي بالنسوية المسقطة التي تتدثّر بشعاراتٍ عن الواقع منقطعةٍ، بل تبني مسار التحرّر مرحلة فَمرحلة وتُشيّده من لبنات الفهم والتحليل، لا على مدار الوهم والتّخييل.

وهو أيضًا مقاربة شيّقة لقضايا حارقة نمرّ خلال فصوله من أساليب التوصيف العلمي إلى متعة المقابلة ومن برود التحليل الذهني إلى طراوة المعاينة، كلّ ذلك في يسرٍ يجعل الذهن يستحضر أوضاع بعض النّساء الدرامية وما تعانيه من مَيْز وإزراء بسبب تخلّف القيَم الذكورية، عبر خطاب دقيق أمين، لا يُعادي ولا يُجامل، بل يصفُ فَيَدعو إلى التبصُّر في وضعيات آن لها أن تتغيّر حتى تُساير وتائر الحداثة وتحملَ الذهن على الاقتناع بعدالة قضيّة المرأة والاصطفاف إلى جانبها، بل جعلها في أولويات البحث الاجتماعي والقانوني وحتى النظر الفلسفي. فَالعربيات أجدر بتَفكير العقلاء وأقرب إلى شواغلهم الفكرية من ترَف التجريد في مسائل ليست من بنات واقعنا بمفاهيم ليست من كَلامنا.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

وجهان للنقد

تُعَدّ عزّة شرارة بيضون (1944) من أبرز الباحثات العربيات اللواتي كرّسن مسيرتهنّ لنقد وضع النساء المزري في العالم العربي والنهوض به، ولا سيّما في لبنان. إضافة إلى نشاطها دفاعاً عن حقوق المرأة ونقداً للذكورية والعنف ضد النساء. وضعت بيضون العديد من الكتب والأبحاث الميدانية، من بينها «مواطنة لا أنثى»، و«الرجولة وتغيُّر احوال النساء»، و«الجندر... ماذا تقولين؟».

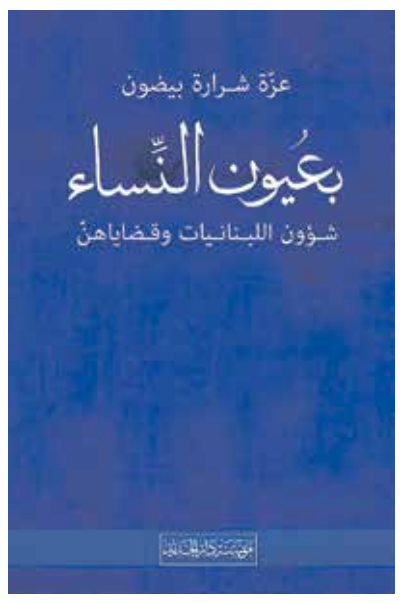

بحث جريء يتوسل علوم القانون لرصد ظواهر العنف ضد النساء

خلاصات عن المجتمع اللبناني يمكن أن تشمل الواقع العربي

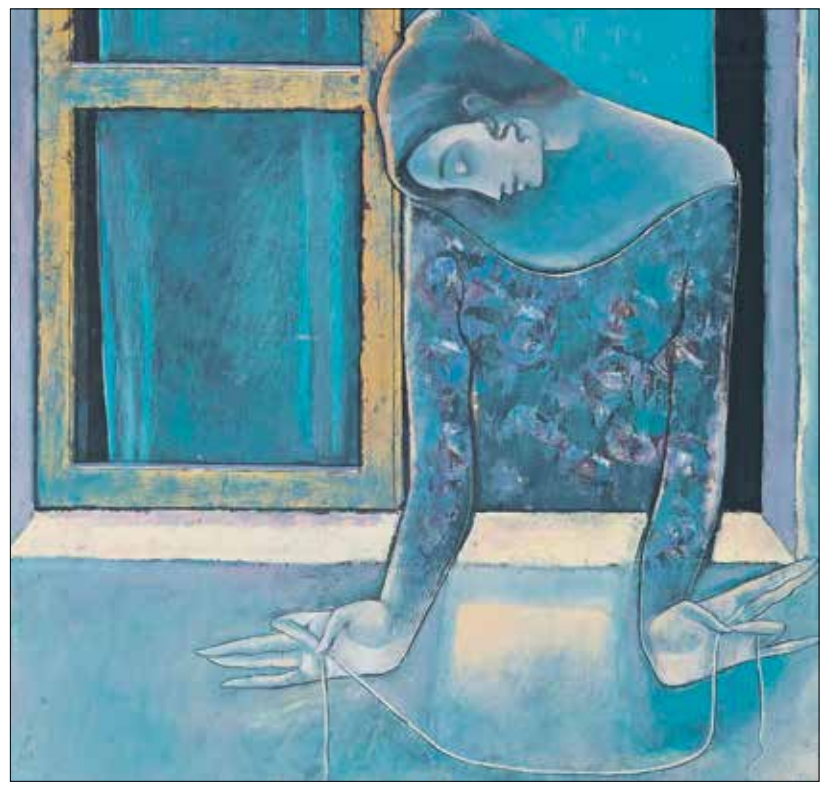

جزء من عمل بلا عنوان لصفوان داحول (سورية)، أكريليك وورق مذهّب على لوح خشبي، 1993

نظرة أولى

تعيد «الهيئة العامة لقصور الثقافة» إصدار أبرز الدراسات الفكرية التي ظهرت خلال القرن العشرين في مصر، ومنها كتاب **النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث** لـ غالي شكري (1935 - 1998). مثّل العمل محطّةً فارقة في الكتابات الثقافية الشاملة عربياً، حيث استدعى شكري مفاهيم ومقاربات في الأدب والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع. الكتاب هو في الأصل أطروحة جامعية أنجزها شكري في فرنسا، وحين صدرت بالعربية خلال الستينيات من القرن الماضي بدت مثل تحيين للكثير من المناهج البحثية والتيارات النقدية المعتمدة في العالم العربي.

أخوات أمام المرآة: تاريخ المرأة المسلمة والسياسات العالمية للحركة النسوية عنوانُ كتابٍ يصدر هذه الأيّام بالإنكليزية عن «منشورات جامعة كاليفورنيا»، للباحثة الأميركية إلورا شهاب الدين. يستعرض الكتاب أحوال المسلمات منذ عصر التنوير حتى فترة «الحرب على الإرهاب»، ويتضمّن لقاءات بين نساء ورجال وجدوا أنفسهم وكأنهم أمام مرآة، وأدركوا أن التغيير في حياة النساء صراعٌ طويل ومرير في أي ثقافة. من أعمال إلورا شهاب الدين الأخرى: «إعادة تشكيل المقدّس: الديموقراطية والتنمية والمرأة المسلمة في بنغلادش» (2008).

بترجمة بدر الدين مصطفى، صدرت حديثاً النسخة العربية من كتاب **ما السلطة؟** للمفكّر الكوري الألماني بيونغ تشول هان (1959)، عن «مركز أركان للدراسات والأبحاث». العمل هو ثاني كتاب للمؤلّف يتصدّى لترجمته مصطفى، بعد «مجتمع الشفافية»، وفيه يناقش هان تعريفات السلطة في العلوم السياسية مع وضعها أمام متغيّرات العالم التكنولوجية والقيَمية. من أعمال المفكّر الكوري الألماني الأخرى: «الرغبة أو جحيم المتماثل»، و«عطر الزمن: محاولة فلسفية حول التأخّر في إنجاز بعض الأشياء»، و«النيوليبرالية والتقنيات الجديدة للسلطة».

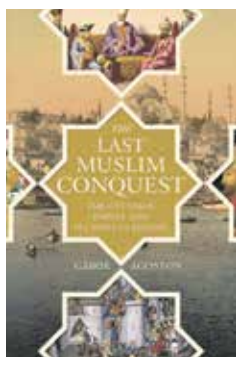

الفتح الإسلامي الأخير: الإمبراطورية العثمانية وحروبها في أوروبا عنوان كتاب صدر حديثاً للباحث الهنغاري غابور أغوستون عن «منشورات جامعة برينستون». يدرس الكتاب دور العثمانيين في ظهور أوروبا الحديثة المبكّرة، خلافاً للصورة النمطية حول طغيانهم واعتمادهم على القوّة العسكرية فقط، حيث يبيّن كيف استفادت الممالك الأوروبية االمتصارعة من تطوّر فنون الحكم والإدارة في القسطنطينية، وتأثيرها عليهم خلال فترة خضوعهم لسلطتها، بفضل سياساتها التي قامت على إدماج الشعوب التي حكمتها وتوظيفهم في جهازها البيروقراطي.

عن منشورات «عناوين»، صدر حديثاً **معجم مصطلحات السيميائيات الحديثة** لعلوي أحمد الملجمي. يشير المؤلّف في المقدّمة إلى أن عمله يهدف إلى الذهاب مباشرة إلى أهم إشكاليات تلقّي السيميائيات، وهي تعقيدات مفاهيمها وكثرتها وعدم تجانسها بين المدارس والتيارات، ما يشكّل سبباً لعزوف الباحثين عن اعتماد هذا المنهج القابل للتطبيق على طيف واسع من المجالات مثل الأدب والفنون البصرية والمسرح. كما يضمّ المعجم مسردين من العربية إلى الإنكليزية وبالعكس يضع فيهما المؤلّف المقابلات الاصطلاحية للمفاهيم التي يشرحها طوال العمل.

عباس كياروستامي: الأثر المفتوح عنوان كتاب صدر حديثاً لدى «منشورات غاليمار» الفرنسية، شارك في تأليفه كل من: أنييس ديفكتور وجان ميشيل فرودون. تقوم فكرة العمل على إضاءة المجالات الإبداعية التي أخفاها بروز كياروستامي كمخرج سينمائي، حيث يفحص المؤلّفان منجز الفنان الإيراني في مجالات أخرى مثل الشعر والتصوير الفوتوغرافي والأعمال التشكيلية، ولا سيّما ضمن فن التجهيز. يضيء الكتاب كذلك السياقات التاريخية والفنية لمجمل هذه الأعمال، كما يجري تفسير كثير منها من مشاهد في أعماله السينمائية وكتاباته حول حياته الشخصية.

يعود الكاتب المصري أيمن رجب طاهر في رواية **أنسباي: حكاية أنس بن مصري**، التي صدرت حديثاً عن «دار كيان»، إلى العصر المملوكي، حيث يتعرّض صبور السراج إلى مؤامرة دبّرها أحد الأمراء للهرب بمعيّة صديقه وابنته، التي تفارق الحياة بعد أن تضع مولوداً تقودُه الصدفة لينشأ في بيت السلطان بعد أحداث دراماتيكية يكشف المؤلّف من خلالها مظاهر الحكم في ذلك العصر، وطبيعة الدسائس والمكائد التي تدور بين القادة والمسؤولين في إطار تنافسهم على إرضاء السلطة، كما يُضيء مجموعةً من الاحتجاجات التي خرجت ضدّ الظلم والاستبداد.

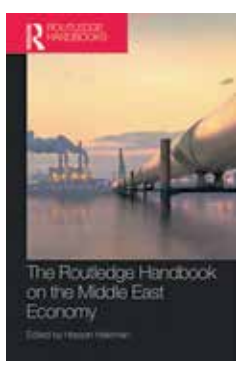

عن دار «روتليدج» البريطانية، صدر حديثاً بالإنكليزية كتاب **دليل روتليدج حول اقتصاد الشرق الأوسط**، من إعداد أستاذ الاقتصاد حسن حكيميان، مدير قسم دراسات الشرق الأوسط في «جامعة حمد بن خليفة». يقدّم الكتاب لمحة شاملة حول المشاكل الاقتصادية والسياسات والأداء الاقتصادي في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ويتضمّن أوراقاً لسبعة وعشرين باحثاً عربياً وغربياً تدمج البحث النظري مع البراهين التجريبية، وتتبّع مسيرة تطوّر فرع اقتصاديات الشرق الأوسط كفرع معرفي تابع لدراسات المناطق ولفرع الاقتصاد التنموي التطبيقي.